من المفسرين فى عصر الحروب الصليبية :

القـــرطبي*

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، من أشهر مفسري ذلك العصر ، وقد بقي لنا تفسيره كاملا .

ولد بقرطبة من بلاد الأندلس ، وتلقى بها ثقافة واسعة فى الفقه والنحو والقراءات ، وسمع من أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض كتابه : المفهم فى شرح مسلم ، ودرس البلاغة وعلوم القرآن واللغة ، ثم وفد إلى مصر ، كما وفد غيره من علماء الأندلس ، وكانت بلادهم فى ذلك الحين تتخطفها الفرنجة ، ولست أدري متى قدم إلى مصر . واستقر فى الصعيد ، بمنية ابن خصيب (المنيا) ، يقضي وقته بين العبادة والتأليف . ويقول مؤرخوه عنه : إنه كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء الورعين الزاهدين . قال عنه الذهبي : إمام متفنن ، متجر فى العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة إطلاعه . وغور فضله وقال عنه صاحب شذرات الذهب : كان إماما علما من النواسين على معاني الحديث ، حسن التصنيف ، جيد النقل .

وترك القرطبي مؤلفات شتى ، أهمها كتابه فى التفسير الذى سماه (جامع أحكام القرآن ، والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان) وتقوم دار الكتب بطبعه ، وتقدر أنها ستتمه فى عشرين جزءاً .

وهو لا يقف فى تفسير القرآن عند حد ماروى من ذلك عن الرسول والسلف الصالح ، بل يتخذ ما أوتيه من أدوات العلم وسيلة يستعين بها على فهمه ، وإن كان يعد معرفة ما أثر من ذلك ضروريا لفهم كتاب الله . وعنا يحسن بنا أن نوضح الرأى الذى أختاره لنفسه فى كتابه ؛ فقد عقد بابا لما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى ، والجرأة على ذلك (جـ١ ص٢٧ طبع دار الكتب)

وفى هذا الباب أورد ماروى عن عائشة أنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد ، علمه إياهن جبريل . وقد رأى فى ذلك ما رآه ابن عطية ، من أن معنى الحديث فى مشبهات القرآن وتفسير مجمله ، ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى . ومن جملة مشبهاته مما لم يعلمه الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها . ثم نقل ماروا الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه قال : اتقوا الحديث عنّي إلا ما علمتم ، فمن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . وروى أيضاً عن جندب أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ . وفى تفسير هذين الحديثين نقل عن ابن الأنباري أن حديث ابن عباس فسر تفسيرين : أحدهما : من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله . والتفسير الآخر ، وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره ، فليتبوأ مقعده من النار ، أما حديث جندب ، فقد حمله بعضهم على أن الرأى معنى به الهوى ، فالمعنى من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، ولم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب ، فقد أخطأ ؛ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . ونقل عن ابن عطية أن معناه أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله ، فيتسور (أى يتهجم) عليه برأيه ، دون نظر فيما قال العلماء ، أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته ، والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا لمجرد رأيه . قال القرطبي : هذا صحيح ، وهو الذى اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سبح فى وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة التى على معناها فهو ممدوح .

قال القرطبي : وقال بعض العلماء : « إن التفسير موقوف على السماع » . وهذا فاسد ... لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع ،

(*) مراجعه : طبقات المفسرين للسيوطى ، الديباج للذهب ص٢٧٩ مقدمة ابن خلدون ص ٣٨١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٣٥ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٤٢٨ ، كتب المؤلف ، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ص ١٩٧ .

وترك الاستنباط ، أو المراد به أمر آخر ، وباطل أن يكون المراد ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ، فإن الصحابة قد قرأوا القرآن ، واختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما النهى يحمل على أحد وجهين ، أحدهما أن يكون له فى الشىء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة ، لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فيتأولون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم ، فى أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة .

الوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير . فمن لم يحكم ظاهر التفسير ، وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى ، والنقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والإستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ؛ ألا ترى أن قوله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها » ، معناه آية مبصرة ، فظلموا أنفسهم بقتلها . فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا . فهذا من الحذف والإضمار . وأمثال هذا فى القرآن كثير ؛ وماعدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى إليه .

وترى من هذا نموذجا لمناقشاته من ناحية ، وأنه ليس من هؤلاء الذين يقفون عند حد النقل من السالفين ، يعمل فكره فى الاستدلال والاستنباط ، لا لمجرد الهوى ، ولكن اعتماداً على قوانين العلوم ، ووقوفا عند حدودها ، وأخذاً من السلف ما يرى ضرورة الأخذ به . من تفسير المجمل وحل المشكل .

وبدأ القرطبى تفسيره بمقدمة أبواب رآها ضرورية قبل الدخول فى التفسير ، وأوضح لنا الخطة التى انتهجها فى كتابه بقوله : « وبعد ، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى ، وأستفرغ فيه منتى بأن أكتب فيه تعليقا وجيزاً ، يتضمن نكتا من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعاً بين معانيها ، ومبينا ما أشكل منها بأقاويل السلف ، ومن تبعهم من الخلف » . وشرطى فى هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها ، والأحاديث إلى مصنفيها ، فإنه يقال : « من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله » . وأضربت عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لابد منه ، ولا غناء عنه للمبين ، واعتضت من ذلك بتبيين آى الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد ، مسائل تبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم ، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، وهكذا إلى آخر الكتاب .

وصدر المؤلف كتابه بمقدمة أبواب : منها واحد ذكر فيه جملا من فضائل القرآن ، والترغيب فيه ، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به ، وباب لكيفية التلاوة ، وما يكره منها وما يحرم ، وآخر فى فضل تفسير القرآن وأهله ، وباب شرح فيه معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه . وعرض أقوال العلماء فى ذلك ، وصلته بالقراءات ، وعقد بابا لجمع القرآن ، وسبب كتابة عثمان للمصاحف ، وترتيب سور القرآن وآياته ، وشكله ونقطه ، وتحزيبه وعدد حروفه ، وكلماته ، وآيه ، ثم عرض لمعنى السورة والآية ، والحرف ، وهل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أولا ، ثم ذكر بابا فى إعجاز القرآن ، ووجه هذا الإعجاز .

وينقل القرطبى كثيراً عن ابن عطية الذى لخص تفاسير من سبقه ، ممن يرون ضرورة معرفة آراء السلف ، واقتدى به فى ذلك القرطبى .

ولم يكتف المفسر بالفصل الذى عقده فى تفسير الجامع — لبيان فضائل القرآن وفضل قارئه ومستمعه ، بل ألف فى ذلك كتابا خاصاً ، دعاه التذكار فى أفضل الأذكار[1] ، وقد رأى أن يجمع فى هذا الكتاب أربعين حديثا ترتبط بهذا الموضوع ، وقد

(١) مخطوط بدار الكتب رقم ب ٢٣٠٤٦